

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٩٣ - سُورَةُ الضُّحَى

مكية وآيها إحدى عشرة .

لطيفة :

قال ابن كثير : روينا من طريق أبي الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي بزة المقرئ قال : قرأت على عكرمة بن سليمان ، وأخبرني أنه قرأ على إسماعيل بن قسطنطين وشبل بن عباد . فلما بلغت (والضحى) قال لى : كبر حتى تحتم مع خاتمة كل سورة . فإنا قرأنا على ابن كثير فأمرنا بذلك . وأخبرنا أنه قرأ على مجاهد فأمره بذلك . وأخبره مجاهد أنه قرأ على ابن عباس فأمره بذلك . وأخبره ابن عباس أنه قرأ على أبي بن كعب فأمره بذلك . وأخبره أبي أنه قرأ على رسول الله ﷺ فأمره بذلك . فهذه سنة تفرد بها أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد الله البزى ، من ولد القاسم بن أبي بزة . وكان إماماً في القراءات . وأما في الحديث فقد ضعفه أبو حاتم الرازى وقال : لا أحدث عنه . وكذلك أبو جعفر العقيلي ، قال : هو منكر الحديث . لكن حكى الشيخ شهاب الدين أبو شامة في (شرح الشافعى) أنه سمع رجلاً يكبر هذا التكبير في الصلاة ، فقال : أحسنت وأصبت السنة . وهذا يقتضى صحة هذا الحديث . ثم اختلف القراء في موضع هذا التكبير وكيفيته . فقال بعضهم : يكبر من آخر (والليل إذا يغشى) . وقال آخرون : من آخر (والضحى) وكيفية التكبير عند بعضهم أن يقول (الله أكبر) ويقتصر ، ومنهم من يقول (الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر) وذكر القراء في مناسبة التكبير من أول سورة الضحى ، أنه لما تأخر الوحي من رسول الله ﷺ ، وفترتلك المدة ، ثم جاء الملك فأوحى إليه (وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى) السورة بتامها ، كبر فرحاً وسروراً ، ولم يرو ذلك بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف . فإله أعلم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (وَالضُّحَىٰ)

[٢] (وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ)

[٣] (مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ)

[٤] (وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ)

[٥] (وَلَسَوْفَ يُمْطِئُكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ)

« وَالضُّحَىٰ » تقدم فى سورة (وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا) تفسير الضحى بالضوء وارتفاع النهار ارتفاعاً عالياً « وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ » أى اشتد ظلامه . وأصله من التسجية وهى التغطية ، لستره بظلمته . كما فى آية^(١) (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا) « مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ » جواب القسم . أى : ما تركك وما قطعك قطع المودع .

قال الشهاب فى (العناية) : فالتوديع مستعار استعارة تبعية للترك هنا . وفيه من اللطف والتعظيم ما لا يخفى . فإن الوداع إنما يكون بين الأحباب ومن تعزّز مفارقتهم . كما قال المتنبي :

حشاشة نفس ودّعت يوم ودّعوا فلم أدّر أىّ الظاعنين أشيّع

وقال فى (شرح الشفاء) : الوداع له معنيان فى اللغة : الترك وتشجيع المسافر .

فإن فسر بالتانى هنا على طريق الاستعارة ، يكون فيه إيماء إلى أن الله لم يتركه أصلاً . فإنه معه أينما كان . وإنما الترك ، لو تصور فى جانبه ، ظاهر مع دلالاته بهذا المعنى على الرجوع .

فالتوديع إنما يكون لمن يجب ويرجى عوده . وإليه أشار الأرجاني بقوله :

(١) [٧٨ / النبأ / ١٠] .

إِذَا رَأَيْتَ الْوَدَاعَ فَاصْبِرْ وَلَا يُهِمُّكَ الْبِعَادُ
وَانْتَظِرِ الْعَوْدَ عَنْ قَرِيبٍ فَإِنَّ قَلْبَ الْوَدَاعِ (عَادُوا)

فقوله (وَمَا قَلْبِي) مؤكداً له . (قال) : وهذا ، لم أر من ذكره مع غاية لطفه . وكلهم فسروه بالمعنى الأول . ولما رأوا صيغة الفعل تفيد زيادة المعنى والمبالغة فيه . فيقتضى الانقطاع التام ، قالوا : إن المبالغة في النفي لا في المنفي فتركة لحكم عليه ، لا لضرره بهجره . أو لنفي القيد والمقيد . وقرئ (مَا وَدَعَكَ) بالتخفيف . وورد في الحديث^(١) شر الناس من ودعه الناس اتقاء فحشه . وورد في الشعر ، كقوله^(٢) :

فَكَانَ مَا قَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ أَكْبَرًا مِنْ الَّذِي وَدَعُوا

ولهذا قال في (المصباح) بهذا : اعلم أن قولهم ، في عم التصريف ، أماتوا ماضى يدع ويذر خطأ . وجعله استعارة من الوديمة تعسف . انتهى .

وكذا قال في (المستوفى) : أنه كاه ورد في كلام العرب ، ولا عبرة بكلام النحاة فيه ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل . وإن كان نادر . انتهى .

وقوله تعالى «وَمَا قَلْبِي» أى : وما أبفضك . والقالى : البغض . يعنى ما هجرك عن بغض . قال الشهاب : وحذف مفعول (قلى) اختصاراً للعلم به ، وليجربى على نهج الفواصل التى بعده ، أو لثلا يخاطبه بما يدل على البغض .

تنبيه :

روى ابن جرير^(٣) عن ابن عباس أن النبي ﷺ لما نزل عليه القرآن أبطأ عنه جبريل أياماً ،

(١) أخرجه البخارى في : ٧٨ - كتاب الأدب ، ٤٨ - باب ما يجوز من اغتياب

أهل الفساد والريب ، حديث رقم ٢٣٣٠ ، عن عائشة .

(٢) أنشده في اللسان (مجلد ٨ ص ٣٨٤) الطبعة البيروتية .

(٣) انظر الصفحة رقم ٢٣١ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

فمُتَّيِّرٌ بِذَلِكَ . فقال المشركون : ودعه ربه وقلاه . فأنزل الله هذه الآية ، وفي رواية : إن قائل ذلك امرأة أبي لهب ، وفي أخرى أنها خديجة رضى الله عنها . ولاتنافي ، لاحتمال صدورهما من الجميع . إلا أن قول المشركين وقول خديجة - إن صح - توجع وتحزن - وفي رواية بإسماعيل مولى آل الزبير قال : فتر الوحي حتى شق ذلك على النبي ﷺ وأحزنه . فقال : لقد خشيت أن يكون صاحبي قلاني . فجاء جبريل بسورة والضحى « وَاللَّأخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى » قال ابن جرير^(١) : أى وللدار الآخرة ، وما أعد الله لك فيها ، خير لك من الدار الدنيا وما فيها . يقول : فلا تحزن على ما فاتك منها ، فإن الذى لك عند الله خير لك منها . وقال القاضى : أو : لِنَهَائِيهِ أَمْرَكَ خَيْرٌ مِنْ بَدَائِيهِ . فإنه ﷺ لا يزال يتصاعد فى الرفعة والكمال « وَأَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى » أى يعطيك من فواضل نعمه فى العقبى حتى ترضى ، وهذه عِدَّةٌ كريمة شاملة لما أعطاه الله تعالى فى الدنيا من كمال النفس وعلوم الأولين والآخريين ، وظهور الأمر وإعلاء الدين ، بالفتوح الواقعة فى عصره عليه الصلاة والسلام ، وفى أيام خلفائه الراشدين وغيرهم من ملوك الإسلام ، وفسوق دعوته فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولما ادخر له من الكرامات التى لا يعلمها إلا الله تعالى . وبالجملة ، فهذه الآية جامعة لوجوه الكرامة وأنواع السعادة وشتات الإنعام فى الدارين ، حيث أجمله ووكله إلى رضاه وهذا غاية الإحسان والإيكرام .

تنبيه :

قال فى (المواهب اللدنية) : وأما ما يفترّ به الجهال من أنه لا يرضى واحداً من أمته فى النار ، أو لا يرضى أن يدخل أحد من أمته النار ، فهو من غرور الشيطان لهم ، ولعبه بهم . فإنه صلوات الله عليه وسلامه يرضى بما يرضى به ربه تبارك وتعالى ، وهو سبحانه وتعالى يدخل النار من يستحقها من الكفار والمصاة . وقد ولع الحشوية بتقوية أمثال هذه الآثار المفتراء تقريراً للجهال وتزييناً لموارد الضلال . ولا حول ولا قوة إلا بالله . وقوله تعالى :

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبى الثانية) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦] (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ)

[٧] (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ)

[٨] (وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ)

[٩] (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ)

[١٠] (وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ)

[١١] (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ « قال أبو السمود : تعديد لما أفاض عليه من أول أمره إلى ذلك الوقت ، من فنون النعماء العظام ، ليستشهد بالحاضر الموجود على المترقب الموعود . فيطمئن قلبه وينشرح صدره ، والهمزة لإنكار النفي وتقرير المنفى على أبلغ وجه . كأنه قيل : قد وجدك الخ . والوجود بمعنى العلم .

روى أن أباه مات وهو جنين قد أتت عليه ستة أشهر . وماتت أمه وهو ابن ثمان سنين ، فكفله عمه أبو طالب وعطفه الله عليه فأحسن تربيته ، وذلك إيواؤه « وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ » أى غافلاً عما أوحاه إليك من الهدى والفرقان ، فهداك إليه وجعلك إماماً له ، كما فى آية^(١) (مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ وَلَا الْإِنْسَانُ) .

قال الشهاب : فالضلال مستعار من (ضل فى طريقه) إذا سلك طريقاً غير موصلة لمقصده لعدم ما يوصله للعلوم النافعة ، من طريق الاكتساب « وَوَجَدَكَ عَائِلًا » أى فقيراً « فَأَغْنَىٰ » أى فأغناك بمال خديجة الذى وهبته إياه . أو بما حصل لك من ربح التجارة « فَأَمَّا

(١) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

الْمَيْتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ» فلا تملبه على ماله فتذهب بحقه، استعطافاً منك له « وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ» قال ابن جرير^(١) : أى وأما من سألك من ذى حاجة فلا تنهره ، ولكن أطممه واقض له حاجته . أى لأن للسائل حقاً، كما قال تعالى^(٢) (وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مِّمَّا لُمُوا * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ) .

وقد ذهب الحسن - فيما نقله الرازى - إلى أن المراد من السائل من يسأل العلم . فيكون فى مقابلة قوله تعالى (وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ) وهكذا قال ابن كثير: أى وكما كفت ضالاً فهذا الله، فلا تنهر السائل فى العلم المسترشد . قال الإمام: ويؤيد هذا المعنى ماورد فى أحوال الذين كانوا يسألونه عليه الصلاة والسلام بيان مايشتهه عليهم . فمنهم أهل الكتاب المارون . ومنهم الأعراب الجفاة . ومنهم من كان يسأل عما لايسأل عنه الأنبياء . فلا غرو أن يأمره الله تعالى بالرفق بهم ، وينهاه عن نهرهم ، كما عاتبه على التولى عن الأعمى السائل ، فى سورة عبس . انتهى .

« وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ » أى بشكرها وإظهار آثارها ، فيرغب فيما لديه منها ، ويحرص على أن تصدر المحاويع عنها . وهذا هو سر الأمر بالتحدث بها . وفى الآية تنبيه على أدب عظيم . وهو التصدى للتحدث بالنعمة وإشهارها، حرصاً على التفضل والجود والتخلق بالكرم ، وفراراً من رذيلة الشح الذى رائده كتم النعمة والتسكن والشكوى .

قال الإمام: من عادة البخلاء أن يكتموا ما لهم ، لتقوم لهم الحجة فى قبض أيديهم عن البذل . فلا تجدهم إلا ساكين من القل . أما الكرماء فلا يزالون يظهرون بالبذل ما آتاهم الله من فضله ، ويجهرون بالحمد لما أفاض عليهم من رزقه . فلهذا صح أن يجعل التحديث بالنعمة كنهاية عن البذل وإطعام الفقراء وإعانة المحتاجين . فهذا هو قوله (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى إنك

(١) انظر الصفحة رقم ٢٣٣ من الجزء الثلاثين (طبعة الحلبي الثانية) .

(٢) [٧٠ / المعارج / ٢٤ و ٢٥] .

لما عرفت بنفسك ما يكون فيه الفقير ، فأوسع في البذل على الفقراء . وليس القصد هو مجرد ذكر الثروة ، فإن هذا من المفجعة التي يقتره عنها النبي ﷺ . ولم يعرف عنه في امتثال هذا الأمر أنه كان يذكر ما عنده من نقود وعروض . ولكن الذي عرف عنه أنه كان ينفق ما عنده ويبيت طاوياً . وقد يقال : إن المراد من النعمة النبوة . ولكن سياق الآيات يدل على أن هذه الآية مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ عَائِلًا) فتكون النعمة بمعنى الغنى . ولو كانت بمعنى النبوة ، لكانت مقابلة لقوله (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) وقد علمت الحق في مقابله . والله أعلم .